

نظرة في النظرات

أخرج هذا الكتاب للناس في هذا العهد والامة في برازٍ دائم بين القديم والحديث يريد بها الاول على البقاء على الريث من تالدها مما ورثته بحكم الطبع أو التطبع ويضطرها الثاني إلى التجرد عما يأخذ بخنائها من العادات والتقاليد العتيقة التي أخفى عليها الدهر والاخذ بالجديد المفيد المنطبق على حاجات العصر اليوم .

وها نحن اولاء نرى بين علماء الدين في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن من يتسائلون عما إذا كان تعليم العلوم المادية الطبيعية والثور على دراستها حراماً أو حلالاً بينا نرى بعض المفكرين من الباحثين العالمين يشهرون على اولئك حرباً عواناً تدير رحاها الافلام مصرحين انهم لا يدبنون بسوى القوة والمادة اللتين هما من مظاهر الطبيعة ويضربون بكل علم عرض الحائط اذا لم يكن من العلوم المادية الطبيعية أو منطقاً على نواحيها الصحيحة أو موصلاً إليها متمماً لها فخرى يبالغ في اعظام الخيال ويغالي في البحث فيها وراء المادة وفريق لا يعرف غير الحقيقة المادية مذمها .

ألا وان هذا البراز الحيوي لم يكن مقصوداً على العلم فقط بل تناول عامة شؤون الحياة وفروع الفنون الاخرى فكان للأدب النصيب الاوفر منه فانا مازلنا ولا تزال نرى بعضهم لا يرى للشعر من المكانة العالية الا اذا كان قائله كاللها زهير وابن معنوق والشاب الطريف ويحسبون أن الكلام الطريف هو ما جاء سبغ « ربحانة الادب » وأشباها غير معتمدين بما عداها من الكتب الممعة مثل « نهج البلاغة » و « العرة اليتيمة » و « كليله ودمية » وما جرى على أسلات السنة الشعراء المتقدمين كالشريف الرضي والمتنبي والمعري وغيرهم من المتأخرين ممن جمعوا إلى التراكيب العربية الفصيحة الافكار الغربية الصحيحة كما انهم لا يعدونها شيئاً مذكوراً .

في كل حركة تقوم بين ظهري هذه الامة المنبسطة لا اله في هذه المملكة المتناثية الاطراف تشهد مثالا مجسماً من مبلغ تأثير تنازع البقاء وتقرأ فيه التجرد نقياً لا يشوبه شوب القديم فتسندل منه على تقدم الامة في أفكارها وآرائها وأن ما يناله القائلون بالتجديد من خصومهم الاعداء المكابرين لا يد من وقوعه مادامت الامة جاهلة خاملة وما دام من كتب لم العلم والتباهة أفذاذ لا يزال تأثيرهم من الضوول والحوول بحيث يتراجع لافل ربح نصف .

وبعد فلا بدع إذا بودي الاستاذ المنفلوطي صاحب هذا الكتاب لاول وهلة بما ناله من معارضة من بذاءة اللسان والتسفيه في القول مانجله عنه لانها سنة في المحدثين منذ القديم . فهذا غشتاف فلور الكاتب الفرنسي المعروف كان يحقنره معاصروه وبهزؤون بكتاباتنه وآرائه حتى يحمله ذلك على البكاء كالامفال الصغار ويشرع بخاطب زملاءه زولا وكونكور ودوده بقوله : « بربكم أنشوفي لم لم تنل هذه المؤلفات الاستحسان الذي أنطلبه » فتأخذهم رعدة الكتابة والحزن فيبكون جميعا — هذا الرجل الذي كان في عصره بهذه المثابة ولم يكتب لاثاره أن يرتاح لها الرأي العام أصبح القوم اليوم يعبدونها ويمجدونها ويسبحون بحمدها .

اماي الآن هذا الكتاب انظر إلى الصفحة الأخيرة منه بمدان كنت قرأت معظم فصوله في الصحف وكانت نظري اليه في المرة الثانية ومقالاته مجموعة في سفر خاص غيرها في الاولى . اذ كنت أطلعهم وأنا ألقى عليه في مفكري بعض ما أخذت به منشئه ورأيتهم مما يجدر ان ينبه عليه مثله على افي قرأت ما كتب عليه في الجرائد والمجلات فأذا به لا يبل غيلا ولا يغني فتيلًا : اذ دل على ان باب « التقريظ والانتقاد » لم يفتح عندنا كل الفتح ونخشى ان طال علينا الامد ان يصيبه ما اصاب باب « الاجتهاد » .

وقد افردت لكل من « أسلوبه » و « موضوعه » و « آرائه » و « لغته » و « وصفه » بحثًا خاصًا سأتكلم على كل واحد من على حدة وافية بالاماع الى شذرة من « روح المؤلف » ، وذلك بقدر ما كنتي الفرصة من القيام به ، وهذا في اليه البحث والنظر .

١ أسلوبه

مما كتبه « المنفلوطي » في مؤلفه هذا قصص جمة كانت هي الباعثة لي على الخوض في غار هذا الموضوع ولذا فأنا انظر اليه في هذا البحث نظري الى قصصي أريد ان أبين طريقتنه في الانشاء وأحاول ان اردّها الى مذهب خاص مما انشاء ادباء المناربة في تاريخ آدابهم . اذ لكل كتاب ادبي قصصي اسلوب خاص ينهج فيه مؤلفه المنهج الذي يراه انه امتع وانفع ووافي طبعه في الغالب او يتبع في ذلك سنة الارتقاء :

قامت في اوربا مذاهب شتى ^(١) في الادب القصصي منذ القرن السابع عشر حتى اليوم وكلها حلقات من سلسلة تاريخ الادب عند الزريبين . فمن هذه المذاهب مذهب

^(١) معرب عن فصول من كتاب « المصنفون والمصنفات »

يرى زعماءه ان الغاية من الصناعة هو اصلاح الانسان وتعزيزه لتخفيف آلامه عند حلول المصائب والنواب . فنجدهم يضعون قلوبهم وافكارهم في كتبهم بدعوى انهم يتأثرون بها هذه تتورث اثر القراء . وان ذوق كاتب القصة الشخصي لتمثل في تضاعيف كتابه قراء يخلق اشخاص الوقائع ليصف شعوره الذاتي وشوقه المبرح به نابذاً العناية برب العواطف في ابطال الرواية ظهرياً . من اجل هذا ندر ما استفاد التاريخ وعلم الاجتماع من امثال هذه المؤلفات .

وما يحلمهم على ذلك الا مشيهم مع شعور القراء وتنزلم من عقول العامة لان هؤلاء اعتادوا ان يعيشوا مجردين عن الحقائق العادية وانهم ليشربون من مطالعة صفحات حياة الانسان كما هي . ولذا كانت خطتهم في الروايات ان يجعلوا الوقائع والاشخاص على هيئة خيالية « *Ideal* » يوم كانت يستفيض على الالسنه انه من اللازم اللازم الاختلاق في الروايات وكانت القصص السامية والاشعار الرقيقة الحافلة بالشعور ليس لها مكانة عالية . وقد سمي هذا المذهب

(*Idealisme* مذهب الفكرين)

وهناك مذهب آخر سمي بالانشاء بدعي « *Romantisme* » — مذهب الخياليين وهو كما عرفه ستاندال هوب : عبارة عن « صناعة تمثل نتائجها الادبية ما يلائم معتقدات الاقوام واغوارهم وعاداتهم في الحال الحاضرة مما يبعث في نفوسهم سروراً ونشاطاً » بل هو كما يقول النقاد الشهير بروثير : هو « ان لا يعرف الصانع سوى ذوقه وتهوساته وخیالاته قاعدة واصلا » بل كما قال اميل فاكي : « ان روح الرومانتيزم الحقيقية هو الحذر من الحقيقة وان يكن لها الصانع في صدره موجدة ونفورا » قالوا : وهذا الحذر يتم باستسلام المفكرة للخيالة كل الاستسلام وليس في هذا المذهب مشاهدة ولا تحييق ولا ترصد كما انه ليس ثمة معقول ولا محاكمة ولا منطلق لان هؤلاء كلها امور تدین للحقيقة المادية — هذا هو اصل الرومانتيزم .

ومن المذاهب التي نشأت وشاعت المذهب التاريخي الذي كان زعماءه يعنون بوضعه في الروايات التاريخية فيعرفون الحقائق التاريخية عن مواضعها ومن التزوير والافتئات بحيث كانوا يطبقون قواهم الخيالة وعامة ما يخترعون من الافكار على الوقائع والحداث . فالتاريخ عندهم كما قال اسكندر دومائيس « مسار يستعينون به على تنسيد الواهم » فليس لديهم من ثم فكرة سوى انهم يعملون على ادخال البشر والارتياح في نفس القاري . بيد ان لجمال

الاسلوب ورقة الوصف عندهم مكاناً من العناية . واملثل نموذج لهذه المؤلفات التاريخية واحفلها كتاب « خمسة آذار » لالفريد دوفيني و « نوتردام دو باريس » لفيكتور هوغو .

وقد نشأ مذهب جديد يدعي بمذهب الطبيعيين « Naturalisme » ومن اخص مميزاته هو ان زعماءه وسعوا دائرة القصص واخذوا يبحثون عن ملجأ تلوذ به اشخاص القصة خشية ان تخوض عباب الوقائع الغريبة التي يشتملها بعض الكتاب لتكون النتيجة اما الانحار او الزواج واصحاب هذا المذهب ينظرون الى ذلك الضرب من القصص نظراً الى العوبة يتلبس بها الفتيان والفتيات . والذي يعنون به اليوم هو صفحات التبع فشان القصة عندهم بنسبة مائيه من صحيح الوصف وحديث الوقائع .

ومن انصار هذا المذهب من القصصيين ممن جردوا الروايات من شوائب الكذب والاختلاق بعد فلوير اميل زولا ومو باسان الكاتبان الفرنسيان المعروفان ونشأ عن هذا مذهب آخر يدعي « Impressionnisme » امبرسيونيزم . والفرق بين هذا ومذهب الطبيعيين هو ان زعماء المذهب الاول يعنون بابلاغ العواطف وآثار ما ولدته فيهم الحقيقة وهم يرون ان « الحقيقة واسطة » . اما انصار الثاني فانهم مستثقلون عن الذاتية وما همهم الا تتبع الحقيقة كما هي على حين يترجم زعماء الامبرسيونيزم الطبيعة اكثر من ان يعيدوها مرة اخرى . وعلى هذا كان ولاجرم مذهب الطبيعيين اتمن وارصن وقصصهم اعظم مهابة ووقارا .

وهناك مذهب جديد وضعه الكاتب الفرنسي الشهير « بالزاك » وانضوى تحت لوائه كبار المتأدبين ممن اثروا اثرًا محموداً في نهضة الآداب الفرنسية الا وهو « مذهب الحقيقيين Realisme » وقد اتم وضعه فلوير بمصنف له سماه « مدام بوفاري » وقد سبق هذا الرجل بالزاك وستاندال ومريمي فاذاقوا الفرنسيين بمصنفاتهم طعم الحقيقة ولكنهم لم يكسروا سورة شؤتهم باسرها ولم يتعد تأثيرهم في نفوس القراء ابقاها الحقيقة فيهم . ولكن مصنف « مدام بوفاري » علم الناس اجمع ماهو مذهب الحقيقيين بما تري في تضاعيفه من وصف الحياة بما فيها من اضطراب وضوضاء باجلى تعبير واوضح بيان .

وطريقة « بالزاك » في قصصه هو انه يبدأ أولاً في تعريف الاشخاص ويأتي على

تصوير المكان الذي فيه يعيشون والبيئة (المحيط) التي في ارجائها يحولون وما يحوي المكان من اثار ورياش ثم يذكر الخلق واجسامهم وما يلبسون وبكثون من اربعة حتى انه يرسم خطوطهم الجبهية واخيراً يتفخ فيهم من روح الحقيقة فينطقون ويشركون .

هذه هي « الطريقة العلمية » التي يتحومها العلماء والعقلاء من كتاب اوروبا في التاريخ والادب ولا يهمهم ما يكتبون سوى انهم يمثلون الحقيقة للقراء عارية باشع واشنع مظاهرها غير هيايين ولا وجليين . وثمة من المذاهب ما كنت اود ان آتي على ذكره هنا لولا اني توخيت في هذه « النظرة » الایجاز مثل المذهب الرمزي (سنيوليزم) والمذهب الفني (كلاسيكيزم) وغيره من المذاهب .

وبعد فلم تقدم بين يدي القاري هذه المقدمة اني نرجو ان نكون المنها فيها بطرف من مذاهب الكتاب الا استطيع ان نحكم على بعض فصول « النظرات » القصصية ونضعها في المحل الذي يجب ان نحل فيه بين هذه المذاهب كلها .

لاجرم ان الناظر في هذا السفر والمطلع على هذه المذاهب يعلم ان المنفلوطي جرى في كتاباته مجرى الخياليين وانه يجمع بين هؤلاء ومذهب الفكريين في الاحايين . فهذه مقالته الكأس الاولى ^(١) و « عبرة الدهر » ^(٢) يتجلى فيها الخيال باحفل مظاهره . فقد سمع صوت المؤلف في الاولى عند قوله : « وما كان له وهو بينهم الخ ... » وكذلك عند قوله فيها : « والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل القمن » . وقد اورد على لسان الشخص المريض الشاخص بصره الى السماء — ذلك الرجل الذي لم يبق منه الا اهاب ممزق — حديثاً لا قدرة لاصحاء الاجسام على ايراده في مثل تلك الحال وقصد المنفلوطي ان يبين سبب الايمان على الخمر فجعل ذلك بلسان المريض ذاكرة ان كل كأس شربها جرحتها عليه الكأس الاولى وان لبس الباعث على ذلك غير قصور عقله عن ادراك خداع الخلفاء وبين « ان الخونة الكاذبين خدعوه عن نفسه خداعاً ليستكلوا بانفسهم اليهم لدهم التي لا تتم الا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع » ثم عاد المنفلوطي واظهر شخصيته فقال : « ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه واي ذريعة تذرعوها بها الى ذلك لتحققت انه ابله الى النهاية من البلاء وضعيف الى الغاية من الضعف » وقد حكم عليه بالبلاء ولم يذكر عن تربيته

(١) ص — ٥ (٢) ص ٢٥

ما يفهم منه انه على غرارة وسذاجة بل الذي تبين انه كان صديق المؤلف وارتباطه بالصدافة يقضي بان يكون فيما احسب على غير ما ذكر .

وفي مقالة عبدة الدهر دليل آخر على مذهب الخياليين وهو ذكره (صاحب القصر) بانه فاسد الاخلاق وإغفاله البحث في ان يذكر عن نشأته الاولى شيئاً تبين منه ان بين جنيته نفساً ملوئها الرذائل . وكان عليه ان يصف (بلالا) الخادم الذي جعله في موقف الحكم الحكيم وانه من المبادئ العالية ماهو كيت وكيت وان يذكر طرفاً من حنى زوجته وتلفها على زوجها الذي كان يقضي الليالي الطوال وهو يداغ ازواج المحارم بمثل ما يداغب غيره زوجته . وهذا نقص كبير وخطأ فادح في الاسلوب . ولكن المنفلوطي كما اسلفنا لم يهتم في الحقيقة اهتمامه الزائد في ان تكون قصته جامعة لجمال الاسلوب الخيالي الذي ضمنه حكماً بالغة وعواطف شريفة بدون ان يتبين المواقف التي يقف فيها الرجل النر الغمر موقف المرشد الحكيم .

ومما يستدل فيه ايضاً على تنكبه جانب الحقيقة سؤال (صاحب القصر) (بلالاً) في اي ساعة نحن من ساعات الليل فاجابه في الساعة الاولى ثم ذكر المؤلف ان الخادم لم يصل من الحديث الى حد معين « حتى نصل خضاب الليل واشتعل المبيض في مسوده » على ان ذلك الحديث يذكر في بضع دقائق ليس الا . . .

هذا نموذج مما ذكره المنفلوطي من الفصول القصصية ومن تشریح اسلوبه يعلم انه احتذى مثال (الخياليين) في انشائه . وكل من نزع الحركة الادبية في المشرق يعلم انها مسوقة نحو الكمال بحكم ناموس « النشوء والارتقاء » وان كتاب المنفلوطي هذا هي احدى الحلقات من سلاسل الآداب التي لا يتم البحث بدونها .

وانا نودع باستقباله وماضيته من اسلوب جديد وتشبيه رائق واستعارات نفحة ذلك الاسلوب الخيالي المحض في كتاب « كليله ودمنة » وهو من تاريخ آداب المشرق بمثابة « لافوتين » من آداب المغرب كما ان غيرنا ودع بما عر به عبدالله بن المنفع كتاب « الف ليلة وليلة » واقاصيص « عشرة » الممزوجة بالابطال الخياليين كما كان بها وبامثالها بدنه « فننا الادبية القصصية كما كانت « الإلياذة » باكورة نبضة الغرب في الآداب وفاتحة رقيهم وتقدمهم .

وجدير بكار ادبائنا العالمين وهم يرون الغرب كل يوم يخطو خطوات واسعة نحو

الحقائق ان يقتفوا آثار مذهب الحقيقين باطراحهم مذهب الخياليين جانباً وان يطيلوا الفكر والتعقيب فيستبدلوا الاحياء بالاموات ويستعوضوا بالارواح عن الاشباح وكفى .



موضوعه

قسم المنفلوطي كتابه الى عشرة فصول : (١) الرسائل العلمية (٢) الرسائل الادبية (٣) الرسائل الاخلاقية (٤) الرسائل الاجتماعية (٥) الرسائل السياسية (٦) الرسائل الدينية (٧) الشعرية (٨) النسيات (٩) الروايات (١٠) المراسلات . ويجب ان نذكر هنا قبل كل شيء ان المنفلوطي لم يحسن تبويب الكتاب فقد ذكر مقالة « افسدك قومك » في الرسائل « الاخلاقية » وكان الاولى ان تكون في « الرسائل الاجتماعية » كما انه ذكر مقالة « مدرسة الغرام »^(١) وفي « سبيل الاحسان »^(٢) في الثانية في حين يقتضي ان تكون من موضوعات الاولى . وانت اذا اردت ان تنزل هذا الكتاب المنزلة الخلق بها من حيث علاقته بالعالم والاجتماع والسياسة والاخلاق رأيت ان يضرب في الاخير منها بسهم وافر ويجري منه على عرق .

تقرأ روح الاخلاق في مقالة الكأس الاولى و « ابن الفضيلة » و « الغني والفقير » و « عبرة الدهر » و « مدينة السعادة » و « الرحمة » و « الصدق والكذب » و « الانصاف » وتراه ايضاً يتعرض للموضوعات الاجتماعية فلا يلم بالبحث فيها من عامة اطرافها على حين تستدعي درساً يلعب المره فيه قراره ليستقط الناظر فيها على حقيقة ناصعة او علم جم او فكر جديد .

يدلك على هذا بحثه عن المجرم في مقالة « افسدك قومك »^(٣) فانا لاننكر عليه انه ذكر فيه ما يفهم منه انه يحمل الذنب على المجتمع البشري وعلى التربية الاولى وعلى القانون وعلى غير ذلك شأن كثيرين ممن قاموا اليوم في اوربا يحامون عن المجرمين وبعدهم كالبائسين يستحقون الرحمة ويطلبون تعديل القانون الجائر لتخفيف ما ينزل بهم من الويل والشبور . ولو كان المنفلوطي من كتاب الحقائق لتوسع في هذا البحث وقراً ما كتبه الاطباء في هذه المسألة لتتم الفائدة .

ثبت مؤخراً بعد الفحص الطبي^(٤) ان الجناة من نقص ملكاتهم المادية والادبية استعداداً لما يوقعونه من الجنايات منذ زمن مديد . وقد فحص « بنديكت » احد

(١) ص ٢٦٥ (٢) ص ١٩٢ (٣) ص ٧٦ (٤) المصنفون والمصنفات .

مشهوري اطباء فينا ادمغة كثير بن ممن يقترون الجنائيات الكبرى فوجدوها بأسرها مؤوفة غير تامة التركيب ، وهذا الرجل يعد الجنون والجنابة صنوان . ويرى رأيه هذا الدكتور « بوردي » الفرنسي وقد بحث سيف ادمغة ستة وثلاثين جانياً حكم عليهم بالاعدام فرأى الناحية الجبهية مصابة والناحية الجدارية واسعة جداً . وهذا يدل على نقص القوة العاقلة والشعور والميل الى الخلق والتزق . وقد نظر « غاروفالو » احد مشاهير علماء الجزاء في ايطاليا في الجناة فلم يجد واحداً منهم خلواً من امارات مادية وادبية تحكي الانسان الاول .

وما ظهر من الحقائق الجديدة من امثال هذا الاستقراء والاستقصاء هو موضوع الرأي العام في اوربا في شأن تنظيم الجزاء . حتى نشأ عن هذه التجارب الطيبة علم جديد يسمى « علم الجرائم البشرية » — أتروبولوجي كرمبيل « وكان للايطاليين اليد الطولى في خدمة هذا الفن الجليل

نال المنفلوطي من المدينة الغربية في كلامه عليها مالا ارضاه ولا يرضاه له كل من درسها حق دراستها وبحث فيها بحث العالم المتجرد عن المؤثرات دينية كانت او قومية لاجت خطيب او اديب او شاعر او واعظ مرشد داع الى وطنية او اخلاق .

ورد في قوله هذا كلام ثلة من حملة الاقلام ممن لهم من اخلاقهم عصبية قومية او نعة شرقية وسواء عندي كان قولهم هذا بدافع الوطنية او الدعوة الى احياء آثار محمد لنا دثر معلما . او الاحتفاظ بما ابقى انا آبائنا من تراث عاداتنا خشية ان يخالطها الضعف او تمازجها لوثة من لوثات الفساد فينشأ ناشئهم وقد انحل من وطنيته كما انحل من دينه وداخل الفساد اخلاقه كما اصاب عاده ومنازه

واني اشاركه في كل ما جاء في تلك المقالة الا في قوله : « ان دعوانا الى الحضارة فله ضرب لم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفيينية لياريس وروم ، وسويسرا ونيو بورك ، وان دعوانا الى مكرمة فانسرد عليهم آيات الكتب المنزلة واقوال انبياء المشرق وكتابه لآيات روسو وباكون ونيوتون وصنفسر ، وان دعوانا الى حرب فني تاريخ خالد بن الوليد وسعد ابن ابى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابوليون وولنجتون وواشنطن ونلسون وبلوثر (بلوخر) ، وفيه وقائع القادسية وافر بقية الحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترفالغار واوسترليتز والسبعين » هذا ما كتبه المنفلوطي الى ابناء القرن العشرين من المشاركة وهو يريد ان يربوا

تربية مدنية عملية يصدون بها غارات الاجانب التي يشنونها عليهم من كل صوب وأوب وهذا هو السلاح الذي يحمل الشبهة المصرية على ان يتسلحوا به ليقاتلوا اعداء الوطنية ويخرجوا من ديارهم من ابتزوا اموالهم وغلبهم على امرهم وكل يوم يربشونهم بسهام التعصب والبطش من الحكمة ان يدعوا القائم بالاصلاح الى قومية او وطنية لكن بدون ان يزدريه مدينة الامم الاخرى الناهضة ويعمل على الحط منها وهم الذين بها وطدوا دعائم استقلالهم ورفعوا متار محمد وسودوم

وما ادري كيف نقوم لنا نحن معشر المشاركة قائمة اذا اقتصرنا على ماورثناه من المناحي والمنازع واقبلنا على الاخذ بما لباه لنا آباؤنا الاولون من الآثار فقط بدون ان نعلم النظر في آداب رجال الغرب واخلاقهم وعاداتهم وتاريخهم وبالجملة نقف على مسر تقدمهم ولا اعلم لاي غرض نعتي بارسال البعثات العلمية الى البلاد الاوربية وتنادي على رؤوس الاشهاد ان هذا هو الذي يحقق لنا الامل في المستقبل اذا لم يكن المقصد منه درس تاريخ نابوليون وولنجتون وواشنطن ونيلسون وبوخز ووقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز والسبعين او لننبل حتى نرى من آداب روسو وباكون وزولا والفريد دوموسه او انتبطن امرار فلسفة ديكرت وباكون ونيوتن وسبنسر وغيرهم .

ويجب ان لا يغرب عن الاذهان ان ماتوفر لقواد المغاربة من الاسباب والوسائل في بيستهم وبين بني جنسهم وما كان يحول في خواطرهم من الاماني التي كانت المصالح تدفعها للانبعاث الى حيز الوجود غير ماتوفر لقواد المشاركة من العرب وغيرهم على اقتحام عمرات الردى في سبيل الدفاع عن الحى وهذا ما يدعو لاختلال التوازن في الدهاء السيامي في الفريقين بما يتذرع به من الحيل الحربية والدسائس في مثل هذه الاحوال للنظر في كتاب الغيب وقراءة مستقبل الامم فيه مما ينجم عنه ما نراه من الاختلاف في نتائج الحروب والمعارك نصراً كان او خذلاناً

وسواء صححت نظرية من زعموا ان من دواعي سقوط الدولة العربية جهل الامة بتاريخ اليونان والرومان اولى تصح فان فيها حقيقة لا اخالها تخفى على امثال الاستاذ المنفلوطي . واذا اتخذنا هذه النظرية اصلاً جاز لنا ان نبشر مساعينا بالاختفاق والحبوط ونحكم على حياتنا الاجتماعية والسياسية بالانحلال والاختلال في مستقبل الايام اذا قادنا الجبل الى ان نخرم على انفسنا الوقوف على سر استبحار عمرانهم وانبساط ظلال مدنيته في طول البلاد وعرضها فنحرم من الاستمتاع بعلمهم وآدابهم .

ولو كان قوله هذا درساً بليغاً على صغار العقول من الطلبة الاطفال ليطبعهم بطابع حب الوطن ويشأوا وهم يفادون في سبيله بالنفس والنفس لما أخذ بقدر ما يؤخذ وهو في موقف ودع فيه — كما قال عن نفسه — « الخيال والشعر وداع من يعلم ان الامر اعظم شأنًا وأجل خطراً من ان يعث به العايب بامثال هذه الطرائف التي هي بالهزل اشبه منها بالجدد والتي انما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدده وعمله »

الا فليعلم الكاتب ان في الغربيين من العادات ما هو خليق بنا نحن الشرقيين ان نغبط به ونأخذ بالنافع الراجع منه والرجاء ان لا يظن باننا بما نكتبه الآن نخدع الامة عن نفسها او نفسد عليها شريقتها بتزييننا لها هذه المدنية تزينا يجمع الى استقلالها النفسي استقلالها الشخصي فاشد واهم الحق ما نكون محتفظين بعاداتنا العربية الشرقية وآدابنا ولكن ما نراه من تيار المدنية الغربية يريدنا على مجاراتها شتتاً ام ايناً فان لم نعد لها عدتها ولم نسرمعها جنباً الى جنب دحرتنا وربما اوردتنا موارد الهلكة غير حافلة بنا ولا آسفة علينا .

ومما انكره عليه ايضاً تعرضه في مقالة الحساب^(١) لولي عقله واستاذه رجل الاسلام الشيخ محمد عبده ورجل المرأة قاسم بك امين . ولو اقتصر على ذكر (الحسن) وذلك الرجل الذي كان في حياته يتخذ في اعماله ما يسمونه (الحيل الشرعية) وذلك (القطب) الذي كان اكبر تاجر من تجار الدين — لو اقتصر على هؤلاء لكان احسن صنعا . وجل ما آخذ به الاول هو انه « فاجاً جهلة المسلمين بما لا يفهمون من المبادئ الدينية الصحيحة والاغراض الشريفة فأرادوا غير ما اراد وفهموا غير ما فهم . وهذا مادعا الى الحادهم (!) ومروقههم من الدين (!) بمد ان كانوا مخرفين وانه اول علم بمض آيات الكتاب فالتخذوا التأويل قاعدة حتى اولوا الملك والسيطان والجنة وبين لهم حكم العبادات واسرارها وسفه لم رأيهم في الاخذ بقشورها دون لبابها فتركوها وانه قال لهم ان الولي آله باطل والله آله حق فأذكروا الالهية حقها وباطلها »

« يتبع »
دمشق : صلاح الدين القاسمي